عثمان

للكاتب الهندي ك . ش . [illegible]
بقلم الأستاذ محمود الخفيف

كل من لهم أعين يبصرون بها يضحكون مني إذا رأوني . ولقد يضحك بعضهم ضحكات واعدة . وإن لديهم لأسباباً مضحكة يروونها عني . ولكني أعلم ما يقولون وأعلم ماذا يجعلهم يضحكون كما تنهق الحمر

إن من أسباب ضحكهم وسخريتهم مني أن لي أيضاً حبيبة كما يكون لأي امرئ حبيبة . وأكثر من ذلك مدعاة لسخريتهم أني تزوجتها ! كيف أصبحت عاشقاً وكيف أصبحت زوجاً ؟ إنهم يجعلون من ذلك قصة يسوقونها ساق العجائب التي يضحكون منها ثم يغرقون في الضحك . فإذا استفهمتهم عن هذه الأعجوبة المضحكة ، أحالوك على النظر إلى نظرة ! وإني لأقف أمامك فماذا ترى في مما يسترعي انتباهك بوجه خاص ؟ إني بعد هذا كله آدمي كسائر الناس .

أنا رجل قصير ؛ سواد بشرتي كسواد الفحم ، تحملني ساقان غير متكافئتين طولا . أما رأسي المهول فإنه قمة لما في بدني من تشويه وقبح . وفي وجهي عينـان صغيرتان مستديرتان في محجرين عميقين ، وأنف أفطس ، وفم واسع غليظ أشبه ما يكون بفم الضفدعة . وفوق ذلك ترى جبهتي الضيقة بين أذنين أكبر حجما مما تكون في العادة الآذان . وتجد كذلك في وجهي علامات تريك مبلغ ما صنع الجدري النهم بلحم وجهي حين بليت به وأنا في الثانية عشرة من عمري . وفي رجلي اليمنى عرج بسبب سقطة سقطتها وأنا صغير ، حقا إني كومة من القبح . ويقول لي الناس إني لأول وهلة أمثل لمن يراني صورة قرد أسود . وليس يضحك الناس حتما إذا أبصروا قردا . وإنما يبعث ضحكهم حين يرونني لأني أشبه القرد وأنا إنسان !

وبينما كنت سائرا في الطريق ذات يوم إذ سمعت من يقول عني لصاحبه : إن هذا

كانت هذه القصة إحدى خمس وأربعين اختارتها جريدة هرالد تريبيون الأمريكية لتنشر في مجموعة أصدرتها في كتاب وذلك من بين أكثر من ستين ألف قصة أرسلت إليها من جميع أنحاء العالم في مسابقة كانت أعلنتها في القصة القصيرة .

وتذكر جهة الناشرة أن القصة التي نشرناها في العدد الثالث تحت عنوان « ناديا » هي التي فازت بالجائزة الأولى في هذه المسابقة العالمية .

وسنتخير من هذه القصص الخمس والأربعين ما نترجمه لقراء بين حين وحين .

الرجل يذكرنى بأحدب نوتردام ! ومع أنى لست أحدب لم أقف مرة لأحتج على مثل هذا . ولست أنا على كل حال من يقطع ماذا تذكر الناس صورتى أو من يذكرونه حين يرونني . على أن ضحكهم منى قد علمنى من نفسى الكثير . وإنى لأتكمش حتى ليتداخل بعضى فى بعض إذا أبصرت الغانيات يخطرن فى حللهن المزركشة الزاهية الألوان ، لأنهن يشحن عنى فى سرعة كما يفعل البراهمة إذا وقعت أبصارهم على يومة هم منها يتطيرون . وهن حين يرفضن فى كبرياء أن ينظرن إلى نظرتهن إلى آدمى ... ويأبين أن يرعين شعورى كإنسان ، حينذاك أشعر أشد ما أشعر بحالتى الحزينة

ولما كنت قد وعيت حاسة إدراك الجمال كما يوهب أى إنسان ، فإنى كذلك أستمتع بالنظر إلى ما هو جميل ، ولكن الناس يعدون ذلك منى جريمة لا غفران لها . وقصارى القول إن دنيانا هذه تملؤنى جلاء أن أمثالى من البشر لا يستحقون أن يعيشوا فيها

لقد مات أبى قبل أن يشرق فجر الذاكرة فى نفسى . وهكذا لم يبق لى مما يسمى حياة عائلية إلا حياة أمى المحزونة . وليت شعرى على أى أبوى تقع تبعة قبحى المرعب المحزن ؟ أتقع التبعة على أبى ؟ أم تقع على أمى ؟ كلا إنى لست أومهما كليهما . وفيم اللوم ؟ لقد ولدت . ومن يدرى فلعلهما لم يريدا أو لم يتوقعا أن أولد . ولقد حاولنا أن نحتفظ بهيكل العائلة ، أنا الذى لم يبد عودى ، وأمى التى لم يهو فرعها ، ولم لا ؟ أما ينبغى لهذه الشجرة العائلية أن تنبثق منها أفرع جديدة ، وأن تبقى حية نامية ؟

ولقد أخذت أمى تتعرف نفسى الإحساس بالعائلة ، ذلك الإحساس الذى يهجس فى نفس كل رجل لأنه كائن اجتماعى . فسألتنى أمى قائلة ذات يوم : ألم يأن أن تجىء إلى بيتنا بعروس ؟

ولم يفاجئنى سؤال أمى ، فأجبتها وأنا أهدىء قلبى المحزون : نعم يا أماه حين تسمح الفرصة

وأخذت أمى تستشير جاراتها اللاتى أبيضت رؤوسهن . وقضت فى ذلك عدة أيام . ولما كانت تعود إلى يوما بعد يوم ، ومض الألم فى معارف وجهها ، أصبح مرآها مشكلة تحيرنى . وكنت أسألها كل يوم : ما خطبك يا أماه ؟ فتجيبنى قائلة : أوه ... لا شىء يا بنى . وكان يخفق مع هذه الإجابة قلب أم يفعمه اليأس بقلة الحيلة

وتصرم أسبوعان ، ولم تعد أمى تغادر الدار . وأخذ يضحك منى حتى من لم يكونوا يضحكون من قبل ! ونظر إلى ذات يوم

رجل وخط الشيب رأسه فقال فى كثير من الشفقة على : يا له من مسكين ! لم جهدت أمه لتحصل له على عروس ؟ يا إلهى لم يخلق رجل مثل هذا ؟

وبدأت أستعمل الأصباغ وأتخذ وسائل الزينة سرا . ولبست الملابس الأنيقة ، ولكن ذلك لم يزد الناس إلا سخرية منى وجعل ضحكاتهم أعلى مما كانت . فهل أصبحت أشد قبحا ؟ ذلك ما تبينته بعد حين. فإن الاستحمام لن يجعل من الغراب يمامة كما يقولون

لكى استأنف ما بدأت من قصة حبى أقول إنى أخيرا ، أنا الذى ذكرت لك من سفاتى ما ذكرت ؛ أنا أيضا ، وجدت لى حبيبة ! وأكبر ظنى أنك تتوق إلى معرفة نعتى أو الجانب الإنسانى من حياتى وأنك لم تعد تطيق صبرا عنها . إذن دون هذه القصة

لقد طالما تعلمت أن أحب وأن أكون محبوبا . أليس ذلك طبيعيا ؟ وإن قصة حبى لقصة عجيبة حقا . فهى تدور حول شابة أحبتنى ثم ارتضتنى زوجا دون أن تلقى بالها قط إلى هيأتى التى نفرت منى جميع الأعين وكرهتنى إلى كل الأنفس .

لقد انتهت محاولة أمى لتحصل على عروس بالإخفاق ، فلن ترضى امرأة أن تصبح زوجا لامرئ هو فى حقيقته بين القرد والإنسان

ولقد أدى بها ألمها من هذا الإخفاق إلى ضرب من الإعياء ، أراه طبيعيا فى سن متقدمة كسنها . ثم برحت بها العلة فلم يعد يرجى لها شفاء ... وأخيرا فإن أمى هذه ، أمى التى كانت تبرد حشاى وتثلج فؤادى المحترق بما تسبغه على من حنانها ، أمى الحبيبة التى ظلت تربط بين نفسى وبين هذه الحياة البغيضة برباط ذهبى من حبها ، أمى التى كانت حياتى ، والتى ترى نوعا من الجمال حتى فى قبحى المروع .. أقول إن أمى هذه قضت نحبها من فرط الحزن وخلفتنى وحيدا . ولست أذرف الدموع عليها ، فإن تألمها لى لم يدع لها فضلا من قوة لتتحمل أكثر مما تحملت .

لم تطل بى الوحدة ؛ فقد حدث بعد أيام أن سمعت نقرات عكاز على الأرض أمام بيتى أعقبها صوت فتاة تقول : أعطنى شيئا ياسيدى . شيئا أمسك به حياتى ، وكانت فتاة شحاذة . وعادت تقول : إنى ضريرة أيها السيد فهل من صدقة ؟ فنظرت إليها ثم نظرت إلى عينها فبعث مرآها الرثاء فى قلبى .. وتفكرت وأنا أنظر إليها فدنسيت حالى . فقلت لنفسى : يالها من مسكينة ! إنها شابة ولكن ليست لها عينان . فليس يمكنها فى حياتها هذه إلا السمع . اللمس

ولم تكن هذه الفتاة ذات حسن . ولكن

جسمها التناسق الأعضاء، كان يوحى إلى النفس روعة الشباب . يالها من بائسة ! إن قلبى ليعطف عليها ، وإنه ليتجه إليها

قلت لها فى رفق : تستطيعين أن تدخلى ، أن تجلسى هنا لحظة . فمدت يدها تتحسس موضع الباب ، فنهضت وأمسكت بيدها وقدتها إلى داخل البيت . وكانت هذه أول مرة تلمس فيها يدى يد فتاة ، وكان ذلك قلبى مثقل بما ينطوى عليه من عواطف حزينة مكبوتة . ونظرت ثانية إلى وجهها . فوجدت رونق الشباب فى هذا الوجه البائس ، على الرغم من هاتين العينين اللتين انطفأ نورهما . ولم يكن صدرها الناهد بعيدا من صدرى . وأخذت تسرى فى بدنى رعشة كما لو كنت أرتعش من البرد ، قبل أن أتنبه إلى حالتى هذه . ثم ارتبكت مفاصلى ، وأحسست بشفتى تتفرجان ، وبأنفاسى تسرع كما لو كدت ألهث .

وقدت الفتاة إلى مقعد فى نهاية الشرفة وقلت لها : تستطيعين أن تجلسى هنا . هل أحست بارتعاش يدى ؟ لست أدرى . وأعطيتها بعض ما طهوت من طعام وعملة صغيرة

وقالت لى إن اسمها ليلى ، وأنها تعيش مع أمها العجوز فى كوخ ذى سقف من القش على مقربة من أحد المصانع الكبيرة فى المدينة . ولما هممت بالخروج سألتها أن تجىء ثانية إلى .

وأخذت ليلى تجىء إلى بيتى من حين إلى حين ، ثم أصبح ذلك عادة لها . وصرنا نتحدث فى أشياء كثيرة ، وأحسست أنى أتخفف من أثقال قلبى ومن أعباء حياتى . وصرت أجد فى بعض ساعات الحياة ما يرضى المرء بالعيش !

وآسفا على عينى ليلى ! لو كانتا تبصران لزاد ذلك من جمالها . أليست نظرة المرأة كفيلة بأن تفقد الرجل صوابه ؟ ومع أنى علمت ذلك من تجارب غيرى من الرجال فأنا أستطيع أن أدرك معناه . إن قلبى المحروم له كذلك أمنياته ؛ على أنه ليس بغيب عنى مبلغ ما فى أمنيتى هذه من حماقة ... ولكن لم أعمى ذلك ؟ لعلها لم تكن تتخذ الشحاذة سبيلا لو كان لها عينان . ولو أنها اتخذت الشحاذة عملا ، فما كانت لتقبل منى إلا ما أعطيها من صدقة . كلا ما كانت عيناها لتجعلاها تجىء إلى بيتى وتتحدث إلى كل يوم .. إلى أنا الذى عرفت من صفاتى ما عرفت

ولحظ الناس لقاءاتنا . ولكننا لم نكن موضع حسد عند أحد . ولقد كنت بسبب خلقتى التى هى مزيج من القرد والإنسان موضع سخريتهم من قبل كما علمت ؛ والآن أمدتهم قصة حبى لفتاة عمياء وتعلقى بها

بشيء جديد يضحكون منه ! ولشد ما ضحكوا من هذا الائتلاف بين العمى والقبح ! إنه لشيء مضحك .. أليس كذلك ؟

وسألت ليلى ذات يوم قائلا : ليلى ... ما ظنك بي ؟ وملأتني فرحا ابتسامتها التي عازجها الحياء . فقلت لها : نعلمي يا ليلى .. إني أريد أن أعرف رأيك . فقالت في رقة شديدة : هل قلت عنك قط إنك رجل سيئ ؟

وأحسست روح الإخلاص في كلماتها فملأني ذلك غبطة . وبدا لي فسألتها دون سابق قصد ، في لحظة من جيشان العاطفة أتحبينني يا ليلى ؟ وأحنت رأسها في حياء دون أن تتكلم . وشعرت أن كل ما في الحياة من جمال وسحر قد اجتمع في هذا المنظر

وانصرفت ليلى عقب ذلك . ليلى ! ها أنذا كذلك قد أصبح لي اسم أهتف به في شغف في هذه الدنيا القبيحة الموحشة ! أجل أصبح لي من أنتظر مقدمه في لهفة ومن أتحرق إلى لقائه . وأصبحت حياتي حلوة ممتعة يشيع فيها الأنس . تلك حياتي التي كنت لا أجد فيها من قبل إلا الانقباض والمرارة . أليس ذلك حظا عظيما ؟

إن الذين يسخرون مني هم أعدائي فماذا يكون الحال لو أنهم تحدثوا إلى ليلى عن قبحي وسوء ... هذا القبح ؟ أتراهم فعلوا ذلك ؟ من يدري فلعلهم فعلوه . ولكن لا ضير ، فكيف تميز ليلى الحسن الجذاب من القبيح المنفر إذا كانت لا تستطيع أن تميز النهار من الليل . لقد أخبرتني أنها ولدت عمياء . ولست أقول إن ولادتها عمياء هو حظي الحسن ولكن هل كان ذلك سوء حظها ؟

وجاءت ليلى في اليوم التالي ولقد كنت أفكر في زواجي بها وكيف أحقق ذلك الزواج . أليس يقتضي زواجنا أن يشهده نائب عن الله كما يحدث في كل رباط مقدس بين رجل وامرأة ؟ ولكن ما من قسيس من قساوسة الله يقبل أن يشهد زواجنا . وإن لذلك لسببا . إن لهؤلاء القسيسين الذين ينوبون عن الله وجهة نظر دنيوية لا يفتأون يسمونها روحية . إني وليلى زوجان غير متكافئين في نظر هؤلاء . ولذلك فلن يقدموا لنا معونة مهما قيل لهم في وضوح وجهر أنه ما من أنثى غير ليلى ترغب أن تكون زوجا لي في هذه الدنيا التي يزيد فيها النساء على الرجال . وفي مثل هذه الأمور ليس غير تحدي كلمة أولئك الذين يقولون إنهم ينوبون عن الله والذين يتولون هذه النيابة في أسماء مختلفة . ولعلك لم تحط بعد علما بأني مسلم

وسألت حبيبتي قائلا : ليلى أتقبلينني زوجا ؟ وشعرت أنها ارتاعت لسؤالي هذا

وأخذتها منه دهشة . وقد جعلها لا ريب تذكرها أنى مسلم تفكر طويلا قبل أن تجيب . ثم سألتنى ماذا تقول ؟ وشعرت أن هناك حدا لما تشعر به هذه الشحاذة العمياء من عطف على . وعدت أقول لها : ليلى ! حسبك أن تذكرى أنى آدمى قبل كل شئ وأن الله أرسلك إلى . وما التقاليد والطقوس إلا من صنع الناس . ونظرت فى توسلى إلى شفتيها المرتعشتين ، وأحسست إحساس القاتل ينتظر كلمة القاضى . أجل فكانت هى التى تقضى بأن أحيا أو بأن أموت . وظلت ليلى صامتة . فقلت لها : تكلمى يا ليلى إنى أريد أن آويك وأن أحميك فعدينى بأن تهبينى السعادة

فقالت أخيرا : سوف أجيب سؤالك ، لقد سمعت من الناس كثيرا من عبارات الازدراء يرموننى بها ، فكلما مررت بهم قالوا : هـذه حبيبة نصف القرد ؟ وأظنك حسب أقوالهم لم تظفر بأى قسط من الجمال

فسألتها : وماذا تشعرين نحوى يا ليلى ؟

فقالت : لست أفهم معنى ذلك الجمال الذى يتحدثون عنه . ولم أر بالضرورة قردا وعلى ذلك فلست أبالى بما يقولون؛ وهل كنت أشعر بخلاف ذلك حتى ولو أنهم قالوا إنك أعظم الناس وجاهة ؟ بقلبى وحده رأيت الدنيا . وبقلبى أرى الجمال والقبح . إنك مسلم وأنا هندوكية ، فإذا لم يكن لديك ما يمنعك من زواجنا فليس لدى ما يمنعنى لقد حسبت أنه ليس فى هذه الحيـاة من يحبنى فى إخلاص ، ولـكن ..

فقاطعتها فى لهفة : وما محل « لـكن » هذه الآن ؟

فقالت : أجل . هناك « لـكن » غليظة وراء تلك الحرفة المهينة حرفة التسول . ليست لدى وا أسفاه أنوثة طاهرة أقدمها إليك ؟ لقد كان ظمأ قلبى إلى الحب على الرغم من أنى عمياء . ولـكن وعاء الشحاذة — وكثيرا ما كان يبيت فارغا بالرغم من شحاذة اليوم كله — كان يضحك ضحكة شيطانية ساخرة من فراغ بطنى وبطن أبى فلم يكن بد من أن أذعن لمطالب الشهوة من تلك المخلوقات التى كانت تطرق بابنا ونحن فى هدوء الليل . وليس ثمة من فائدة إذا شعرت نحوى الآن بالاشمئزاز بسبب ذلك . إنه ما من رجل يضع شيئا فى وعاء شحاذة فتاة بدافع البر . ولقد ظننت أول الأمر أن ما أبديته نحوى من عطف كان من هذا القبيل وأرجو أن تغفر لى هـذا الظن السئ . على أننى اليوم لا أشعر نحو آدمى غيرك باحترام ومحبة

وقد عقدت الدهشة من كلامها لسانى لحظات وصدمنى قولها صدمة شديدة لبثت

ما كنا لا أحير كلاما . وأخيرا قلت لها : ليلى : إن ما ذكرته هو قصة أنانية الرجل ، تلك الأنانية الرخيصة المنحطة ، ولن تخطر لى هذه القصة على بال بعد الآن ... ولم تجب ليلى بشىء وظلت صامتة حتى انصرفت

وحدث الزواج بعد بضعة أيام ، وأحدث فى القرية ما أحدث من عجب وإثارة فكر وفضول . فلقد التقينا أنا عبد الله وخطيبتى ليلى ولم يشهد التقاءنا أحد ، ولم يتم على عقدنا شهيد ينوب عن الله ، ولا زكانى ولا زكاها . وأقسمنا كلانا أن نكونا شريكين فى الحياة.

وازدادت جلبة الضحك من حولنا ، وازداد فضول الناس وعلت قهقهتهم حين جاءت ليلى وأمها لتعيشا معى فى كوخى . وأصبح الذين يجعلون من أنفسهم أوصياء على المجتمع وإن لم يعترف بهم أحد أو يسندهم قانون ينظرون إلينا ويعرضون لزواجنا متسائلين فى دهشة ! ولم يفطن هؤلاء الناس إلى أن وراء هذه القصة ، قصة حبنا وزواجنا قلبين يحترقان . وحاولت أن أخفف عن ليلى ، وأن أذهب عنها الحزن فقلت لها : ليلى ! دعى الناس يضحكون فإنهم لا ريب خاسئون

وأخذنا نعيش معا . ولست أقول إن حياتنا الزوجية كانت حياة سعيدة من جميع نواحيها . كانت معيشتنا زوجين مثارا شديدا للجانب الإنسانى من نفسيتنا . هذا ما أصف به حياتنا الجديدة . أما عن الناس فإن ما تواضعوا عليه من أخلاق اجتماعية وتقاليد دينية ، يتخذون حولنا مظهرا انتقاميا عظيما فلا معونة لنا من أحد ولا تعاون معنا فى أية صورة ؟ وليس ثمة ما يشعرنا أو يوحى إلينا أننا نستطيع أن نعيش سعيدين . ولكننا أردنا أن نعيش وقد أخذنا أهبتنا لنواجه ما يصادفنا من مصاعب

وحدث بعد ذلك حادث جديد . إن ليلى بسبيل أن تصبح أما . إن تكوينى فى صورة فردية آدمية ، وإن عماها لم يحولا دون أن أكون أبا وأن تكون أما . ولقد تجاهلنا أحاديث الناس وسخرياتهم . وماذا يهمنى من الناس ؟ إن ما لم أكن أحلم به من ضروب المسرات قد ظفرت به تباعا فقد أصبحت محبا ثم صرت زوجا . وها أنذا بسبيل أن أغدو أبا . لقد توجهت بقلبى إلى الله شاكرا نعمه ، فما أعظمه سبحانه ... يا عينى ليلى اللتين انطفأ فيهما النور .. إليكما أرجع هناءتى !

ولكن المرض انتاب ليلى وبينها وبين أن تضع ما فى بطنها شهران . واستدعيت طبيبا فحصها ورحت أتوسل إليه أن ينقذها ، فقال : ليس فى الأمر ما يخيف

وسوف أشفيها . ثم سكت لحظة وسألني : أهي عمياء منذ ولادتها ؟ فلما قلت له : نعم فحص عينيها ثانية ثم قال بعد أن تفكر لحظة : إني قادر على أن أرد إليها بصرها بعملية جراحية ولكن ذلك مستحيل الآن فلندعها حتى تسترد عافيتها بعد أن تضع حملها

وهزت كلمات الطبيب قلبي من أعماقه وهزت شباب نفسي وهزت حياتي كلها . ماذا يقول الطبيب ؟ إنه يستطيع أن يعيد النور إلى عيني ليلى ! أإذا أبصرت ليلى أتراها ترتجف حين ترآني وهي لا تعرفني إلا بأنني رجل له قلب جدير بأن يحب ؟ أتراها ساعة تستطيع أن تبصرني تبقى على محبتها أياي واحترامي ؟ ماذا ينبغي أن أقوله للطبيب ؟ لقد أردت أن أصيح قائلا لنفسي : لا ، إن عينيها لا تطلبان النور . ولكني وجدت نفسي أقول : ليلى ! يقول الطبيب إنه يستطيع أن يبرئ عينيك من العمى !

ورحت أردد في سورة آلية ماسمعته مني ولكن كيف أبين لها أن إعادة النور إلى عينيها إنما يتهدد حياتي من جذورها ؟ أأمنع النور عن عينيها ؟ ما هذا الذي أفكر فيه؟ وأي شيء يقف الإنسان دون بلوغه ليحتفظ بنور عينيه ؟ أليس شفاء الإنسان من العمى إذا أتيح له حظا دونه كل حظ ؟ إن ليلى التي عرفت قلبي وفهمتني من هذه الناحية حق الفهم لا تدرك الناحية الذليلة من نفسي . لقد قالت لي : إذا كنت أستطيع أن أسترد بصري فإني راغبة في ذلك كل الرغبة ألا تجد سعادة في ذلك ؟ إني إذا استطعت أن أراك فسيجعلك ذلك تحبني أكثر مما تحب

ورأيت الرضا والأمل في وجهها حتى في مثل تلك الحال من المرض والألم ! أكان ذلك لمجرد أن حياة جديدة توشك أن تبتسم ؟

وكتب الطبيب الدواء وشرح لي كيف أسهر عليها وكيف أعطيها دواءه وقال : تعال عندي حين تسترد عافيتها بعد الوضع وسأحدثك عن تلك العملية حديثا مفصلا

ولبثت ليلى هادئة . ولكن رأسي كانت تعصف به المواصف من فرط تفكيري ، وكأن نارا تلهب ذهني . فذهبت إلى نهاية الشرفة وهناك جلست وحدي . إنني لا أستشعر شيئا من الراحة إلا في كوخي هذا الصغير وسوف أحرم حتى من هذا القدر الضئيل من هدوء البال . ما أضيق مضطربي في هذا الوجود ! ... كلا ... كلا .. إنك لن ترد إلى ليلى بصرها أيها الطبيب ! لقد تآمرت مع أعدائي الذين يتهمونني على قتلي ، ولكنك لن تقتلني فسأعجل أنا بقتلك !

لماذا قذفت بالنار على حياتنا ؟ كلا .. لست ألوم أيها الطبيب ... إن واجبك أن

تحارب الأمراض . وإن العمى لمرض من أقبح الأمراض وأشدها سوءا ، ولست تستطيع أن تقف حياله مكتوف اليدين . وعلى ذلك يجب أن تهب لها النور ، إنك لا تدرى شيئا عن حياتى ... ليلى عزيزتى تستطيع أن ترى ؟ يا إلهى هب لها هذه النعمة التى يجب أن يسعد بها كل آدمى ... ولكن يجب أن أكون ترابا قبل هذا .. قبل أن تستطيع ليلى أن تدرك بعينيها ما ذا يكون الرجل الفردى ! وبذلك أعيش فى ذاكرتها وأنا ذلك الرجل الذى له قلب والذى أحبها فى إخلاص وآواها . ليت شعرى هل يبقى إلى الأبد حبها الخالى إياى وما تراه فى من جمال؟ إن قلبى ليبكى بين أضلعى !

ووضعت ليلى غلاما .. وعاد فضول الناس يتعقب هذا الغلام الذى عده سفيحا . وضحك بعضهم مقهقها كما تنهق الحمر ! أليس ذلك أمرا يحمل على الضحك وعلى الاستغراق فيه ؟ ولكن هذا الغلام الذى ولد لأب قبيح الشكل وأم عمياء يرى براءة كل مولود . ولقد ورث هيئة أمه وعينى أبيه !

واستردت ليلى عافيتها ، وما كادت تحس القوة حتى ذكرتنى بما حملتنى أنانيتى على أن أمسك عن الإشارة إليه ، فقالت ألا نذهب الآن فنقابل الطبيب ؟ ولم تدر أى عاصفة بعثتها كلماتها فعصفت بقلبى

وكذبتها فقلت : نعم لقد كنت نسيت وسأذهب فأراه اليوم وأنظر ماذا يقول . ولقد كنت أعلم أنى كاذب وكنت كالذى يتعاذفه الموج . فخرجت من كوخى وعدت إليها بعد ساعتين أقول لها : لقد مات الطبيب . وكان ذلك قصارى ما من القول فماذا عسى أن أقول أكثر منه ؟ لقد ظننت أنى لن أستطيع أن أقول حتى هذا الذى قلت ! ولقد عجزت حتى عن أن أظهر بمظهر الزوج الذى يجب أن يفزعه ويحزنه نبأ كهذا ، نبأ موت الطبيب الذى كان يزمع أن يشفى زوجته من العمى ! وكان على بعد ذلك أن أحتفظ فى قلبى الذى يثخنه الألم بذلك السر الذى تولد من القسوة والأنانية .. آه .. لقد كان حملا أثقل من أن يقوى قلبى على حمله ، وإن ما فعلته ابتغاء الأمن والهدوء قد قضى قضاء مبرما على راحة ضميرى وهدوء بالى إلى الأبد

وأخذت الأيام التعسة تتعاقب يوما فى إثر يوم . وقد حدث أن رأيت ذات يوم حين عودتى إلى كوخى منظرا خليقا بأن يمزق نياط القلوب ، فقد نسيت أم ليلى أن تخرج من الحجرة طستا واسعا من النحاس كان فى وسطها . واندفعت ليلى صوب سرير ابنها وكان يبكى ولم تستعن بمكانها فعثرت بالطست فارتمت على وجهها وتفجر الدم من جبهتها ، وكان جرحها عميقا فحملتها إلى المستشفى

أتراك تشعر كما لو أردت أن تضحك الآن؟ لم يعد لدى مايدعونى إلى الشكوى . ومن ذا الذى يبالى بشكاتى ؟

ليلى يا عزيزتى .. يا حياتى ... يا دنياى ! قد استدعانى أحد الأطباء وقال لى : لا بد أن سقطتها كانت شديدة مرعبة فإن جرحها خطير . ومضيت إلى ليلى وكانت راقدة تتلوى من فرط تألمها وحدثتها فقالت وهى تجهش : أجئتنى ؟ إنى ذاهبة .. آه لو كنت أستطيع أن أراك مرة واحدة بعينى !

وبدت لى رغبة ليلى هذه الأخيرة امتحانا يبلغ تحملى . أتراها حزينة لأن الطبيب الذى كان قادرا على أن يرد بصرها إليها قد مات ؟ قد لاذت بالصمت ...

فقلت لها : ليلى لا تحسبى أن رؤيتك إياى بعينيك أمر جدير بالأهتمام ، ألم تربنى بقلبك النقى الكبير إنى أعلم أنك وحدك فى هذه الدنيا التى رأيتنى كما ينبغى أن أرى . وإن الناس لا يستطيعون أن يرى بعضهم بعضا بأعينهم ، وعلى ذلك فلتطيبى نفسا يا عزيزتى ، وستبرئين من مرضك عما قريب وأصغت ليلى إلى ثم أعقب ذلك صمت .

وكانت الشمس قد جنحت للمغيب وأخذت ليلى تتعذب . وأخذت أحس مرارة الألم . وشعرت بأن سرى الذى ينوء به قلبى يوشك أن ينبعث منه على رغمى . ورأيت ألا قبل لى بأن أظل قائما حيث كنت . وجاءت أم ليلى بالغلام فوضعته إلى جانب أمه . وبدأ يصرخ هذا المخلوق الضئيل واعله اختنق فى ذلك الجو الدرامى الذى أحاط بنا . وراحت تبكى كذلك أم ليلى . ووجدت نفسى بحيث لا أستطيع أن أملك لهم شيئا ولا أملك لنفسى نفعا

وذهبت نفس ليلى الصافية إلى بارئها فى هدوء . ولست أذكر ماذا فعلت حينذاك . لقد وقفت نبضات قلبى ، وزلزل حوله قلبان . وعندئذ غربت الشمس وتكاثفت حولى الظلمة . ولا يزال أولئك الذين لم يدركوا ما كان وراء قبحى المرعب من آلام وآمال والذين لم يقفوا على قصة حبى العجيبة ، يضحكون منى كلما رأونى . وإنى لأسأل نفسى أحيانا : ترى ماذا كانت تصير إليه قصتى لو أنى كنت أعمى كذلك ؟

محمود الخفيف